

الفصل الخامس

الموالى والإسلام

رأى المثقفون من بعض رجال الموالى القائلين بالحركة أن السكيد للإسلام على الحيلة أنجح وأنه لا يمكنهم محاربتة إلا بالدخول فيه ، فاعتنقوا الإسلام ظاهرا وظلوا يخلصون لعقائدهم القديمة واتخذوا وسائل كثيرة لمقاومته وللتفريق بين المؤمنين به ، وأول ما فعلوه أنهم انكبوا على دراسة اللغة والأدب والقرآن والحديث واستغلوا هذه المعرفة فوضعوا من الأحاديث على النبي ، وشرعوا يوجهون الأدب والعلم بما يريدون وترجموا كتب الزندقة مما أثر عن ماني ومزدك وغيرهما فكانت هذه المترجمات سببا لإيجاد الخلاف بين المسلمين فنشأت الفرق المتعددة .

يقول كريم : لقد جاء هذا العنصر الجديد من الوجهة الدينية بخميرة مؤثرة جدا كانت سببا لإيجاد البدع ، وتكوين الفرق ، وبث الشك وانتشار الجدل الفلسفي ، خاصة ما جرى به من المانوية^(١) .

والمانوية تقوم على المبدأ الثنوى : (من أن للعالم إلهين اثنين ، أحدهما إله النور والآخر إله الظلمة) ودعايتها للزهد المتناهي الذى فرضه ماني على الأخيار من الاتباع فى عدم الزواج ، وعدم اقتناء شيء خلا قوت يوم ولباس سنة ، وإدامة التطواف فى الدنيا ، وتحريم ذبح الحيوان ، وإيذاء الماء والنار والنبات . كذلك وضع مرسوما على

(١) كريم تاريخ الثقافة ج ٢ ص ١٦٩ ، راجع كولدسيهر الدراسات الحمديّة ج ٢ ص ٥٣

الأتباع المحسنين لهم والمخالفين بالأسباب الدنيوية بالمصدق بعشر الملك وصوم سبع العمر ، والاقتصار على امرأة واحدة وأرجع ذلك إلى احتقار المادة التي مصدرها الظلمة ، والظلمة محترقة . فما صدر عنها فهو محترق^(١) . وزاد ابن النديم أن ماني فرض عليهم تعلم العليل والسحر والقيام بمهمتين ، هما الشك في الدين والاسترخاء والتواني في العمل^(٢) . ويقول نيرخ : كانت هذه الحركة في الشرق أخطر أعداء الإسلام ، فإن من طبيعة المانوية أن تتدخل في غيرها من الأديان وتمزج بها وتتحد معها كي تمزق وحدتها من الداخل بما تبذره من أصول الخلاف والانشقاق^(٣) .

ومثل المانوية المزدكية حيث تشتركان في الأثلية ، وتنفر دالمزدكية بالإباحة المطلقة في الأموال والنساء . وقد انتشر هذا المبدأ في بلاد الفرس فقاومها الملوك الساسانيون مقاومة شديدة . وثبتت قدمها في العراق سرا^(٤) ويكاد هذان المبدآن — المزدكية والمانوية — يكونان مصدرين مهمين للفرق التي ابتعدت عن الإسلام ، وغذاء للزنادقة المشهورين الذين أسسوا فرقهم لإيجاد الخلاف وإضعاف تلك العقيدة التي انبعثت من قلب الجزيرة . بل كان هذان المبدآن عنصرين قوين منهما يستمد الشعراء المعنيين بالمقاومة قوة شعرهم ومادة خيالهم .

وقد حاول الخلفاء العباسيون أن يقضوا على الزندقة فلم يستطيعوا وأول من وقف لها بالمرصاد الخليفة المهدي ، فحكم على بشار ابن برد بالموت . وأوصى ولده الهادي ألا يتوانى عن استئصال

(١) البيروني آثار ص ٢١١ . (٢) فهرست ص ٣٣٣ . (٣) نيرخ في مقاله عن

السكفاح بين الإسلام والمانوية في مجلة O. L. Z, B 32, 4S7. 1929

(٤) كريم — ديوان أبي نواس ص ، ١١ كريم ، تاريخ الثقافة ج ٢ ص ١٧٠ .

البدع الجديدة ، وقضى الرشيد على أسرة البرامكة ، وحكم المعتصم على الأفشين بالموت ، وأعدم المقتدر الخلاج ، ولسكن لم يتمكن هؤلاء الخلفاء من الوقوف دون انتشارها ، فقد عمت إيران وتغلغت في العراق^(١) كانت هذه الفرق التي نجمت عن المانوية والمزدكية والسبائية وما أبدعه خيال القائمين بالحركة في جملتها وتفصيلها واختلاف أشكالها وتباين أزمان القائمين بها وتنوع وسائلهم تهدف إلى القضاء على الدولة العباسية لإقامة دولة جديدة تعيد مجد الأكايرة .

ولعل ذكر بعض الأمثلة من الفرق التي نشأت ونشر سير بعض الشخصيات التي وقفت موقف المعارض العتيد يلقي شعاعا قويا على ما كان يجري في هذه الفترة من المؤامرات التي انهار بها الشرق الأوسط .

أتباع أبي مسلم الخراساني وفرقة الخرمية^(١)

قام أبو مسلم الخراساني بحركة ضد الدولة العباسية كما ذكرنا آنفا ، فقضى عليه أبو جعفر المنصور ، ويظهر أن أتباعه لم يجدوا الوقت مناسباً لمقابلة السيف بالسيف فعمدوا إلى نشر عقيدة تناسخ الأرواح ، وادعوا أن أبا مسلم يؤمن بها ، وأن روح آدم حلت في عثمان بن نهيك (رئيس حرس المنصور) ، وأن أبا جعفر المنصور ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم ، وأنهم يطلبون رؤيته . فلما طلع عليهم عثمان ليقتنعهم قتلوه بسهم ونجا المنصور من حركتهم هذه التي أرادوا بها الانتقام لسيدهم^(٢) ، ثم ظهر رجل يدعى إسحق ، دعا الناس إلى أبي مسلم وزعم أنه نبي أرسله زرادشت وأنه لا يزال حيا لم يم^(٣) .

(١) راجع كريم تاريخ الثقافة ج ٢ ص ١٧٠ وما بعدها .

(٢) ط ج ١ ص ١٣٠

(٣) الفهرست ٣٤٤ . فان قانون ١٣١٠ .

وتنشأت بعد قتل أبي مسلم فرقة الخرمية التي يمكن إرجاع تسميتها إلى قرية خرم قرب أردبيل . وتسمى أيضا بالمسابية . انقسمت فرقتين — فرقة تقول بإمامة أبي مسلم « وأنه لم يموت ولن يموت » حتى يظهر فيملاً الأرض قسطاً وعدلاً . وفرقة قضت بموته « وقالت بإمامة فاطمة ابنته » وتدعى هذه الفرقة الفاطمية . وحاصل تعاليمها راجع إلى رفع التكليف ، وتسليط الناس على اتباع الشهوات من المباحات والمحرمات ، وامتد بها الزمن وكثر أتباعها عام (٥٣٣٢) (٩٤٣ — ٩٤٤ م) ومن أبرز أتباعها بابك الخرمي خرج على المعتصم وشغل الدولة العباسية حيناً من الدهر (١)

الراوندية

وظهر شخص يسمى هاشم بن حكيم ويعرف بالمتنع الخراساني وهو من أخلص أتباع الراوندية ومؤسس هذه الفرقة ، يدعى الأبلق زعم أن الروح التي كانت في عيسى بن مريم حلت في علي ثم في الأئمة واحداً بعد واحد إلى إبراهيم بن محمد سبط العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم وتبعه كثير وكان كل رجل من أتباعه يدعو الجماعة إلى منزله فيطعمهم ويستقيهم ويبيح له حرمة الإسلام ، وخرج في جماعة منهم على الناس ينادون أبا جعفر المنصور — أنت أنت يعنون بذلك أنت ربنا وإلهنا (٢) وبدأ تعاليمه قرب مرو . وتبرقع بحريز أخضر ، وزعم أن الله تحول إلى صورة آدم ، ومن صورة آدم إلى صورة نوح ، ثم إلى صورة الأنبياء واحداً بعد واحد ، حتى حصل في صورة أبي مسلم ثم من أبي مسلم إليه فتبعه كثير (٣) .

(١) المسعودي ج ٦ ص ١٧٧ . (٢) ط ٣ ص ٤١٨ ، الإسلام ، مجلة

ص ٤٩٤ مولر . طان فلونن ص ٩٧ ، تولدكه ص ١٢٥ ، نصوص شرقية .

(٣) البيان والتهيين ج ٣ ص ٥٣ — ٥٤ كريع تاريخ الآراء السائدة ص ٧٤ .

ثم قال إنه إنما تجسد لكي يراه الناس إذ لا يمكن رؤيته قبل ذلك .
وعبر نهر جيحون إلى نواح كثيرة ، وشرع لهم جميع ما أتى به مزدك
وقتل من خالفه وثار على المهدي ودوخ جيوشه انتقاماً لأبي مسلم وللمولة
الأكاسرة التي هدد أركانها العرب . ووبق ثائراً أربع عشرة سنة حتى
حوصر وقتل سنة تسع وستين ومائة للهجرة . ولما أحيط به أحرق جسمه
ظناً منه أن جسمه سوف يتلاشى فيتحقق أصحابه قوله ، فاحترق ولم يتأت
له ما أراد من التلاشى . بل وجد في التنوير وقطع رأسه وأرسل إلى الخليفة
وصار له تبعه بما وراء النهر يدينون بدينه مستخفين منتحلين في الظاهر
للإسلام . وقد ترجمت أخباره من الفارسية إلى العربية ويذكر البيروني
أنه استقصاها في أخبار المبيضة والقرامطة (١) .

الباطنية والقرامطة

لا أريد أن أفصل الحديث في الباطنية والقرامطة تفصيلاً يبين منشأها
وتطورها التاريخي وما أصابها في أيامها التي تعاقبت عليها وما انتهت إليه
من النتائج فقد كتبت في شأنها كتب مفصلة تقلبت فيها الآراء اختلافاً
واتفاقاً ، وحسبي من أمرها أن أبين مكانتها في هذا الصراع وأثرها القوي
في توجيه المجتمع الإسلامي توجيهاً مضلاً .

إنني أرى أنهما فرقة واحدة ذات هدف واحد في سبل مختلفة وأنهما
امتداد للحركات التي قام بها أعداء الإسلام من الموالى واليهودية فقد كان
الإسلام كارثة على هؤلاء الخصوم حيث هدم آراءهم وأزال معالم
سلطانهم فلم تهدأ لهم نائرة منذ أن رأوا هذه العقيدة تزداد شوكة وقوة
تحطم أركان الظلم ، وتزيل معالم الفساد وتقيم دولة الخلافة على قواعد العدل
والإخاء والمساواة ، فقد فعل اليهود فعلتهم في بث الفرقة في إثارة الفتن

زمن النبوة وتهيئوا للجليل من الأمور في أيام الخلافة ، فسأهم كعب
الأخبار مع المولى الهرمزان في اغتيال الخليفة الثاني وأقام عبد الله بن
سبأ الموالى في العالم الإسلامي وأقعدهم بالشغب على الخليفة الثالث حتى
قتله ، وأطلقها فسكره يهودية مبتدعة تشير الشك وتقتلع عقيدة التوحيد
من جذورها حين دعا إلى تأليه الخليفة الرابع ، وزاد أتباعه أن أشاعوا
فكرة التجسيم والتشبيه ، وكانت آراؤه مصدراً لبعث العيسوية الأصفهانية
التي كانت تقول بصحة نبوة عيسى ومحمد بالنسبة لشعبيهما فقط ، أى أن محمداً
رسول الله إلى العرب لا إلى العجم ولا إلى بنى إسرائيل وأن عيسى مرسل
إلى شعبه والتي قلدها من بعد ذلك الإسماعليون في إيجاد العقيدة العمامة ،
كذلك كانت آراؤه مصدر الغلو في العالم الإسلامي ، ونشأت عن ذلك
الفرق التي ألهمت أبا جعفر المنصور وألهمت أبا مسلم الخراساني بعد مقتله
وشاعت ففكرة العصمة من الخطأ ، وظهر مبدأ المعرفة المطلقة حيث
يحيط الإمام بالعلوم ما ظهر منها وما بطن ، وصحب ذلك كله مبدأ الحلول
وتناسخ الأرواح .

أخذت هذه الآراء تتجمع شيئاً فشيئاً وتتلامح حتى تركزت ونشأت
عنها هذه الفرقة العمانية فرقة الباطنية التي أخرج آراءها ووجه الناس إليها
ميمون القداح الشنوى الديصاني خليفة أبي مسلم الخراساني ومستجيب
ابن سبأ اليهودي .

كان هذا المولى ذكياً عالماً فأسس هذه الفرقة على أسس قوية مبنية
على دراساته التي اكتسبها من مدارس الفلسفة اليونانية وتعاليم مزدك
وزرادشت ومائى وغير ذلك يضاف إليها ما جاء في الكتب السماوية .
اشتد إلى ما أفادة من هذا كله فهي لنفسه خطة محكمة خفيها بالسرية القوية
ظاهرها حب آل البيت والدعوة لهم وباطنها إعادة دولة الأكاسرة .
شرع يعبى دعااته ليدبوا آراءه وعقيدته لتحقيق خطته فكان يختارهم

اختياراً يتوخى فيه الذكاء والذلاقة وقوة العارضة وكتبان السر والقدرة على إغراء الناس وجلبهم إلى لوائه وكان هؤلاء يستترون بثياب كثيرة مختلفة تارة بالصوفية والشعوذة والتشفي والزهد والاستجداء والتجارة وطوراً يلبسون ثياب النساء إذا أعوزهم الأمر ، وكان من أقوى خصائصهم قوة العارضة ومتانة الحججة ، ومعرفتهم ميول الناس ورغباتهم ، لا يخالفون أحداً وغاية ما عندهم أن يروا ميوله ويتحسسوا مغامز الضعف فيه حتى إذا وجدوا ذلك غمزوه فيها .

وكان الناس في ذلك الوقت من السذاجة ما يجعلهم يتبعون من يحقق لهم رغبة أو يحيب لهم طلبه ورجال القдах من هذا الطراز ، أذكاء ناهون مدربون .

ولما آل الأمر إلى ابنه عبد الله قام به على أمته ، كان يفوق أباه ذكاء ومعرفة فوضع مشروع الدعوة على أسس متينة جعلها متدرجة وقسم المجتمع على أساس مبلغ أهله من العلم والمعرفة والمكانة ، فالعامه لهم درجة ، والذين يلوّنهم رفعة لهم درجة ، وهكذا تتصاعد الدرجات حتى تبلغ الدرجة السابعة حيث تتكشف مبادئ الحركة كلها أمام المنتسب .

وعبد الله هذا هو الذي وضع يده بيد حمدان قرمط الشاثر الثاني الذي كان يستمد مبادئ ثورته من آثار آبائه الأولين الذين ألهو أبا جعفر المنصور وأبا مسلم الخراساني الذي كان يريد أن يعيد دولة آبائه بالسيف ففشل وعلم أتباعه أن السيف لا يجدي في تحطيم عقيدة الإسلام ولن يجدي في ذلك إلا إثارة الشك ، إن إثارة الفتن من الضعفاء بين الأقوياء أنفع من السيف الضعيف لاسيما الإسلام لا يزال في عنفوان شبابه ، لقي حمدان قرمط عبد الله بن ميمون القдах لقاء موفقاً مكتمل الهدف فوضع أحدهما يده بيد الآخر ومشيت دعوة القдахين القوية جنباً إلى

جنب مع دعوة قمرط تشدد أزرها وقطعها بمبادئ جديدة مبنية على التجارب . لقد خلفت قتلة أبي مسلم وراءها كثيراً من الناقين ، تفرقوا فرقا وأحزاباً لكل رأى ووجهة في الانتقام ، فاستطاع عبد الله بن ميمون أن يلم شعها ويوجهها الوجهة التامة ، فقويت بذلك شوكة دعوته واستمرت تمشى مستندة إلى أسس متينة وازدادت قوة في إقناعه أتباعه بنظرية الإمام المستور الذي يحيط بكل شيء ، وهو مصدر العلم والعرفان ولا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق حجته عبد الله بن ميمون القداح فقال بهذه الدعوة مكانة ممتازة جعلته يسيطر على الدعاة والأتباع لاعتقادهم أنه هو الباب الذي يابجونه إلى إمامهم ، وتطورت نظرية الإمام المستور والحجة إلى نظرية الإمام المستودع والإمام المستقر ، ومعنى ذلك أن الإمام المستودع تكون الإمامة وديعة عنده يؤديها إلى الإمام المستقر ولا يؤديها إلى غيره أما الإمام المستقر فله الحق أن يهبها من يشاء لأنه يحيط بكل شيء وأن عنده أسرار المعرفة .

وأياً كان الشأن فإن هذه النظرية من مستلزمات الحركة استغلت استغلالاً كبيراً لفائدة القداحين ، فقد مثلوا دور الإمام المستودع ، وتعرضوا للأخطار لتكون الحركة دائماً بأيديهم ، أما الإمام المستقر فهو رمز ودرع للحركة وأمل للأتباع من جميع الأقوام والشعوب لأن حب أهل البيت مغروس في النفوس لذلك يتبعون من يدعو لهم ، والحقيقة التي لا مرية فيها ، أنه ليس الإمام المستقر من الأمر شيء . ولما ضعفت الدولة العباسية وقويت الحركة الباطنية ، وضعف شأن العلويين ، بدت للوجود فكرة جديدة ، وهي فكرة كانت عنصراً قوياً في بناء هذه الحركة ، تلك هي البنية الروحية . التي جعلوها في دعايتهم وتعاليمهم تفوق في بعض الأحيان البنية الجسدية ورأينا الإمام المستور الحسين ابن أحمد ، ينزل لسعيد بن الحسين بن عبد الله القداح عن الإمامة ويتركها

وديعة عنده كي ينزل عنها لابنه بعد وفاته ، فكانت هذه الوديعة في توجيهها وجهة أخرى ماثلة عن قواعدهما الأصلية أول نقطة تفرقت بها السبل بين القرامطة والقداحين في دعواهم الباطنية ووجد القرامطة الذين يؤمنون بظهور الإمام المستور خروجاً من القداحين على الدعوة ، وصعب عليهم أن يروا إماماً من غير أهل البيت ، وثارَت بين أهل الدعوة ثارات الفتن ، واختفى حمدان قرمط ، وقيل قتل ، وهرب سعيد بن الحسين إلى المغرب . وكان هروبه بناء على إلحاح من داعيته الوفي أبي عبد الله الذي دوخ الأغلبة كما يأتي تفصيل ذلك في آخر الفصل .

وصل عبيد الله إلى المغرب وحبس بسجلماسة عاصمة بني مدرار في المغرب الأقصى وكان داعيته على اتصال به .

وبينما كان دعاة القداحين بضربون في الأرض يتسترون في الدعوة ويستميلون الناس إلى حضرتهم ويجمعون الأنصار في بلاد الشام والعراق وخراسان والبحرين كانت فتن القرامطة تملأ أرجاء المملكة ، وكانوا يشنون حملاتهم على مراكز الضعف فيها ، وكثيراً ما كانت جيوش الخليفة تنهزم أمام هذه الحملات وكان كل همهم إسقاط الدولة والقضاء عليها ، وإقامة دولة فارسية تأتي على العقيدة الإسلامية من جذورها ، ولقد أغاروا على مكة ودخلوها واقتلعوا الحجر الأسود الذي وضعه محمد صلى الله عليه وسلم بيده وجعله رمزاً لوحدة الأمة واحتفظوا به مدة عشرين عاماً وهذا دليل واضح أن الحركة كانت موجهة إلى العقيدة والسلطان .

وجمل القول أن أصول هذه الفرقة التي بنوا عليها دعوتهم : أن الإمام عندهم مصدر العلم والمعرفة يحيط بما ظهر وما بطن ، لا يخطئ ، ويرجع ذلك إلى مبدأ التأليه الذي أخذت به الفرق المختلفة التي تشكلت في أول

الحركة ، ولقد نتج عن ذلك نتيجتان إحداهما استطاعة الإمام التصرف في العقيدة كما يشاء ، لأنه أعرف الناس وأكثرهم إحاطة بها ومن ثم عمدوا إلى آيات القرآن يؤولونها كيفما تحلو لهم ، فلما وضعوا مبدأ الاستبداد والاستقرار مثلاً ، قالوا لقد جاء هذا في القرآن بقوله تعالى « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين » وقوله تعالى : « فستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » وقالوا : إن الشرائع تلزم العامة دون الخاصة ، فإذا صار الرجل من عارفهم ومحققهم وموحيهم رفعوا عنه الواجبات ، وأباحوا له المحظورات ، وأولوا كثيراً من أصول الإسلام على حسب ما ترمى إليه أهدافهم ، فهم يؤولون الصلوات الخمس بأنها معرفة أسرارهم ، وصيام رمضان يراد به كتمان أسرارهم أما الحج فلا يراد به إلا السفر إلى شيوخهم . لقد كان مبدأ المعرفة التي هي إشراق إلهي خطراً جداً فقد وصل به الفلوس إلى مبدأ الحول أي حلول الإله في روح إمامهم وقد ادعى ذلك كثير من غلاة الباطنية .

واحتضنت الباطنية آراء مزدك في شيوعية الأموال ، وزاد بعض الناقلين إباحة النساء ، وعزوا ذلك إلى ما وصل إليهم عن خرما زوجة مزدك ومن اتبعها .

ومهما يكن فإن المبدئين لقيما رواجاً في فارس قبل مجيء الإسلام ، ثم استغلها أعداء الإسلام أيام الدولة الأموية ، فلما استقر ملك بني العباس وجدنا هذه المبادئ شائعة قوية الشيوع بين الزنادقة والشعراء والأدباء ، وبين جماعة الحركة أتباع أبي مسلم الخراساني وابنته فاطمة وبابك الخرمي . ولما كانت هذه الحركة الهدامة التي تحاول قلب الدول وتبديل العقائد تحتاج إلى مال يغذيها رأينا حمدان قرمط يبتدع نظاماً مالياً شيوعياً فيضع الضرائب على أتباعه المستجيبين له ، يضع ضريبة الفطرة

ومقدارها درهم واحد على كل قرمطى . ثم ضريبة الهجرة ومقدارها دينار ، وضريبة البلغة ومقدارها سبعة دنانير ، وضريبة الخمس وهى أن يدفع المستجيب خمس ما يملك وضريبة الألفه وهى أن يدفع القرمطى جميع ما يملك ، وكانت تجمع هذه الأموال عند رجل واحد ، والأتباع جميعهم فيها سواسية كأسنان المشط ، وقد سميت هذه الضريبة الأخيرة ضريبة الألفه لأنها ألفت بين قلوب الجميع وجعلتهم فى العقيدة إخوانا . وكان حمدان قرمط يتلو عليهم عند جمعها قول الله تعالى : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » . وكان يمنهم ويعدم أن الأرض جميعها ستكون لهم دون غيرهم ، ولذلك فإنهم لا يحتاجون إلى أموال يكتزونها فى بيوتهم .

ومن أهم العناصر التى قامت عليها الدعوة الباطنية مبدأ العقيدة العامة ، ذلك أنهم لأجل أن يجذبوا الناس جميعهم إليهم ، كانوا يدعون لعقيدة عامة تضم العقائد كلها ، وكان عبد الله بن ميمون القداح أول واضع لهذا المبدأ ، وقد وجد بعض أتباع الأديان السماوية والمزدكيون وأتباع زرادشت بعض ما تصبو إليه نفوسهم فى هذا المعتقد العام ، فاتبعوه ، ودخل فى روع الأتباع أن عبد الله موطن لحلول زرادشت وماني ومزدك وموسى وعيسى ومحمد يرومون من وراء ذلك تحبيب الناس لهذه الدعوة وشرعوا يمدونهم ويمنونهم ويظهرون لكل فريق ما يوائم معتقده . أفسحت هذه المبادئ لرؤساء الباطنية أن يؤولوا الكتب السماوية والعقائد بما يتفق مع هذا التعميم وذكروا أن للقرآن معنى ظاهراً وآخر باطناً ، وأن للشريعة ظاهراً وباطناً ، وأن الباطن الحقيقى الذى هو أصلها لا يعرفه إلا الإمام الباطنى الذى يفيض الله عليه نور المعرفة ، فتتكشف له الحقائق ، وأولوا الحديث والتوراة والإنجيل ، وما ورد فى المعتقدات الأخرى الأمم والشعوب .

وساعدتهم على هذه الآراء جماعات العلماء الذين اتخذوا العلم والأدب ستاراً لتنفيذ هذه السياسة وطفقوا يبشون آراءهم للخاصة والعامة ، ومن هؤلاء إخوان الصفا وغيرهم من جماعات الزنادقة . ومن الشخصيات القوية التي أعاتت على هدم العقيدة الإسلامية ومقاومتها وأثرت تأثيراً شديداً : ابن المقفع والحلاج ، وحيدر بن كايوس وسنذكر نبذاً توضح اتجاه كل منهم في هذا الفصل .

هذه الباطنية ثورة عارمة من الموالي قاموا بها ضد أبناء الجزيرة العربية ، الغرض منها إعادة المجوسية الأولى والقضاء على عقيدة التوحيد . سارت بقوة واتجهت إلى شمال أفريقيا يحدوها أبو عبد الله الذي دوح دولة الأغالبة ، فلما تم له الاستيلاء على ملكهم عام ٢٩٦ هـ سار إلى إمامه المسجون بسجلماسة ، فأخرجه من السجن ، وجاء به من الغربية ، وأجلسه على العرش في تونس .

وبذلك قامت قواعد أول خلافة للموالي عام ٢٩٧ هـ على أساس من الأحكام والتستر وراء الدين ومن هذا المركز القوى أخذوا يمدون دعوتهم وينازعون قوتين اثنتين : الدولة العباسية في آسيا للقضاء عليها والدولة الأموية في الأندلس^(١) للوصول إلى زعامة العالم الإسلامي . ولما استشرى سلطانهم وكثر عديد جيوشهم وعدتهم زحفوا على مصر ففتحوها على يد قائدهم جوهر الصقلي عام ٣٥٨ ووضعوها أساس القاهرة والجامع الأزهر ، وبدأت حركة علمية جديدة يتبعون من ورائها بث

(١) عندما أعلن الفاطميون خلافتهم رأى الأمير الأموي في الأندلس عبد الرحمن الثالث أنه أحق بها منهم بعد أن ضعف الخليفة العباسي فأعلن خلافته واتخذ لنفسه لقب الناصر لدين الله عام ٣١٧ هـ / ٩٢٩ وشرع يقاوم الفاطميين ويحول دون توسعهم ، وقد أرسلوا عليه أسطولا فأجابهم بأشد منه وضرب شواطئ أفريقيا الشمالية .

آرائهم وأفسكارهم ، ولما كان الباطنيون لا يتشددون بالدعوة مع المدعوين كما ذكرنا آنفاً ويتركون الشعرة لا تنقطع كي ينالوا مآربهم أخذوا يجلبون العلماء والأدباء من أقطار العالم الإسلامي ينفروهم بالدعوة ويستغلونهم لشقويتها ، ولكن الكثرة الغالبة أثرت عليهم ولم تفسح لهم مجالاً للوصول إلى ما يبتغون ، لقد خرج القداحون على الدعوة بأخذهم بالإمامة وبتساهلهم فأغاظ ذلك القرامطة فانفصل هؤلاء عنهم وغزوا مصر فعلا للقضاء على الفاطميين ، ولولا دراية المعز وحسن تديره الذي استطاع إرجاعهم وهزمهم لكان للباطنية تاريخ آخر . استمرت حكومتهم في إرساء قواعد الملك بالقاهرة ومصر حتى أيام الحاكم بأمر الله الذي شذ عنهم وعاد تخضع لأصول الباطنية الأولى فادعى الألوهية واستعجاب للفلاة من الدعاة الذين وصلوا إليه من فارس والمغرب وقد أثار ادعائه هذا كثيراً من الذين لا يؤمنون بالباطنية واضطربت البلاد وحدثت أحداث وقتل الحاكم ولم يعثر له على أثر ، فزعم أتباعه أنه اختفى وسوف يعود ولا يزال فريق من أتباعه يعتقدون بذلك . ظلت البلاد من بعده تنتقل من محنة إلى محنة إلى أن ضعفت دولتهم وقامت دولة الأيوبيين ، أسسها صلاح الدين الأيوبي ابن أخي شيركوه الذي عين وزيراً للخليفة الفاطمي من قبل نور الدين السلجوقي الذي كان يخشى على مصر من الصليبيين .

ثم صارت الوزارة من بعد شيركوه لصلاح الدين الذي صفي حساب الدولة الفاطمية ، وقلب تعاليمها وجعل الفقه الشافعي يدرس في الأزهر مكان فقههم ، وبذلك اتجه الأزهر اتجاهاً آخر غير اتجاهه الأول ولا يزال على ذلك إلى اليوم ويرجع الفضل له في حفظ التراث العربي الإسلامي إلى يومنا هذا .

١ - ابن المقفع

روزبة بن داؤديه ، مولى آل الأهتم في البصرة ، كتب لداود بن عمر بن هبيرة ، أخى يزيد بن عمر والى العراق لمروان الثانى (٧٤٤ - ٧٥٠) آخر خلفاء بنى أمية ^(١) ولا نعرف زمن تسميته عبد الله وكل الذى نعرفه أنه بقى أميناً لحقيده المجوسية إلى زمن الدولة العباسية حيث أسلم على يد عيسى بن على عم المنصور ^(٢)

كان عبد الله كاتباً بليغاً وسياسياً ماهراً ، لفت أسلوبه الكتابى نظر الخليفة أبى جعفر المنصور (٧٥٤ - ٧٥٥ م) فقربه إليه وطلب منه ترجمة كثير من الكتب عن الفارسية فقام ابن المقفع بذلك ، وهو أول من ترجم كتاب كلية ودمنة ، وكتب أرسطو المنطقية عن الفهلوية ، وترجم من كتب التاريخ الفارسية كتاب التاج فى سيرة أنو شروان ، ومن كتب العقائد كتاب مزدك ، وألف كتباً قيمة فى الأدب والسياسة منها كتاب الأدب الكبير والأدب الصغير ورسالة الصحابة يعنى بذلك صحابة الملوك ومن يقرؤونهم إليهم . وفى هذه الرسالة ظهرت مواهب ابن المقفع فى السياسة والإدارة وصلاحيه الحكم ^(٣) ونال خطوة فى البلاط ، غير أن الخليفة تغير فجأة فأمر بقتله ، ودارت حول هذا القتل الأقاويل ، واشتبهت الروايات ، وأحيطت بشيء من الغموض وقليل من أحاديث خرافة وكان أول هذه الروايات قبولاً عند الناس : أن ابن المقفع تشدد فى كتابة عهد الأمان بين المنصور وبين عمه عبد الله بن على فحفظها عليه المنصور . وثانى الروايات أن ابن المقفع قتل لعداوة شخصية بينه وبين سفيان بن معاوية والى البصرة . ورواية ثالثة تعزو سبب قتله إلى اتهامه بالزندقة ، فإنه لما

(١) فهرست ص ١١٨ ، جهشيارى ص ١١٧ .

(٢) فهرست ١١٨ ، ابن خلكان ص ١٨٨ .

(٣) بروكلمان ملحق ج ١ ص ٢٣٤ - ٢٣٧ ، راجع رسائل الباقام .

قتله سفيان قال له : « والله يا ابن الزنديقة لأحرقنك بنار الدنيا قبل نار الآخرة ^(١) » . وأضعف هذه الروايات ما ترجع قتله إلى العداوة الشخصية ، وتليها في الضعف رواية كتابة العهد ، فإن باستطاعة المنصور أن يجعل ابن المقفع يكتب كما يريد المملى لا كما يشاء الكاتب ، والراجح أن ابن المقفع كان زنديقاً لا يؤمن بالله ولأيقم وزناً لدين محمد بن عبد الله . وقد كشف القناع عن ذلك الأستاذ جويدي الإيطالي في الكتاب الذي نشره أخيراً مؤلفه إبراهيم بن القاسم ، وهو كتاب « الرد على اللعين عبد الله بن المقفع » ، وفي هذا الكتاب اقتطف إبراهيم فقرات من كتاب معارضة ابن المقفع للقرآن ، مقتطفات لا رابطة بينها جاء بها ليرد عليها ، نذكرها كما جاءت في الكتاب وهي :

بسم النور الرحمن الرحيم — أما بعد فتهللى النور الملك ، العظيم الذى بعظمته وحكمته ونوره عرفه أولياؤه والذى اضطرت عظمته أعداءه الجاهلين له والعامين عنه إلى تعظيمه ، ومسيح ومقدس النور ، الذى من جهله لم يعرف شيئاً غيره . ومن شك فيه لم يتيقن بشيء بعده
انقلب عليه خلقه الذين هم عمل يديه ، ودعا كلمته ، ونفخة روحه ، فعادوه وسبوه وآسفوه . وأنشأ يقاتل بعضهم فى الأرض ويحترس من بعضهم فى السماء بمقادفة النجوم ويبعث لمقاتلتهم ملائكته وجنوده . . .
وأنزل ملائكته فإذا غلبوا عدوا قال أنا غلبته ، أو غلب له ولى ، قال أنا ابتليته فقتلت أعداؤه أنبياءه ورسله

وأجل عدوه إلى يوم يبعثون .

ولا ينجاب أحداً إلا بالخيال والسلاح

وهكذا يقتطف ابن القاسم من كتاب ابن المقفع مقتطفات ويرد عليها رداً مسجوعاً يسفه به آراء ابن المقفع ويجعل كتابه هذا طعناً فى الدين .

ليت ابن القاسم ذكر كلام ابن المقفع كله ورد عليه بمجموعه ، وفسح المجال لغيره أن يرد عليه ، ولو فعل ذلك لكان لنا مجال واسع في معرفة ذلك الجدل القوي الذي كان يشار بين الملحدين والمسلمين ^(١) .

إنك ترى ابن المقفع في معارضته يبدأ رسالته بتران جديد للبسملة ثم يشرع يمدح النور ، وأنه منبع الخير والمعرفة ، ويهاجم الإسلام من حيث إنه دين والقرآن من حيث إنه منزل على محمد ، خاصة في ضرورة الجن ، وإحراقهم بالشهب ، ثم يستهزئ بالله (جل وعلا) . حيث لم يجعل النصر للمسلمين إلا بالسيف وعلى ظهور الخيل ، ويظهر جور الله وظلمه ، — من ذلك قتل أنبيائه ورسله ، وعدم حمايتهم وتأخير معاقبة الظالمين إلى يوم القيامة ، وأنه يسلط الأمراض والمصائب على الناس ، ويشعر بالفضب والحزن والألم لأنه يرسل زبانيته يوم القيامة ليعذبوا الخارجين على الإسلام . ولا يقف ابن المقفع عند هذا الحد بل يتهم بالنبي صلى الله عليه وسلم .

ويؤيد القول في زندقة ابن المقفع ما جاء عن المهدي أنه قال : « ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع » ^(٢) . وجاء في المسعودي أن المهدي قد أمعن في قتل الملحدين والذاهبين عن الدين لظهورهم في أيامه وإعلانهم باعتماداتهم في خلافته لما انتشر من كتب ماني وابن ديسان ومزقيون وما نقله ابن المقفع وغيره عن الفارسية والفهلوية ^(٣) .

أما ما يخص الكتاب فإن الأستاذ أحمد أمين يشك في نسبه لابن المقفع ، ويشك أيضا في نسبة الرد إلى ابن القاسم من الناحية الفنية . لأنه يرى أن ابن القاسم عاش في النصف الأول من القرن الثالث والستين كله من أوله إلى آخره مسجوع متكلف السجع ، وأن هذا العصر عصر

(١) اقرأ مجلة (O. L. Z No 6, 1929, 430) (٢) ابن خلكان ص ١٨٨

(٣) المسعودي مروج ج ٧ ص ٢٩٤ وما بعدها .

الجاحظ لم يتكلف فيه السجع ولم تؤلف فيه كتب مسجوعة^(١) أما شكه في نسبته لابن المقفع فلأن الأسلوب غير الأسلوب المعروف الذي يراه القارىء في كتاب الأدب الكبير والأدب الصغير ، ورسالة الصحابة ، وإنى لأرى هذا رأى ، فإن الفقرات التى أوردتها ابن القاسم لم تكن مسجوعة إلا فى القليل منها ، وأن الفكرة التى تقول إن ابن المقفع عارض القرآن بهذه الرسالة بعيدة كل البعد . فان الاتجاه الذى اتجهه ابن المقفع لم يكن معارضة بل كان مهاجمة ونقداً . كما يظهر من هذه الفقرات التى اقتطف ابن القاسم بعضها وترك جلها « غفر الله ذنبه » وأن أسلوب هذه الفقرات أسلوب لا يختلف عن أسلوب الأدب الكبير والأدب الصغير والوحدة فيها واضحة ، لا تخفى على النابه .

أما السجع الذى ورد فى رد ابن القاسم فهو متكلف ظاهر التكلف ، وقد تقصد ذلك لأنه حاول أن يظهر رده بمظهر الأديب القوى الذى يمكنه أن يأتى بسجع مثل سجع القرآن فأخطأه الحظ ، ومع ذلك فإننى أقول للأستاذ أحمد أمين ، متى كان السجع مختصاً بعصر دون عصر ؟ إنك تجد فى القرآن نثراً مسجوعاً ونثراً مرسلًا ، وتجد فى خطب الحجاج وزياذ كلاماً موزوناً .

وكان المختار الثقفى يسجع فى كلامه^(٢) فقد قال ابن الشرق للحجاج : إن المختار يسجع وذكر له من عباراته ، فضحك . وقال كان المختار يقول — « ورافعة ذيلها ، وصايحة ويلها بدجلة أو حولها » .

وقد يؤيد ماقلته عن ابن القاسم الكتاب الذى يعزى إليه فى الرد على النصارى وهو كتاب مسجوع متكلف السجع لا يختلف عن كتابه فى الرد على ابن المقفع^(٣) .

(١) ضحى الإسلام ج ١ ص ٢٢٦ . (٢) البلاذرى أنساب الأشراف ص ٢١٦ .

(٣) برجستر اسلاميك ج ٤ ص ٢٩٩ سنة ١٩٣١ .

ومن هنا نجد أن ابن المقفع لاقى حظه في تهمة الزندقة تبعا للحركة
القوية التي قام بها ، وأن كلمة سفيان : « والله يا ابن الزندقة لأحرقنك
بنار الدنيا قبل نار الآخرة » كانت مطوية على قسط كبير من الحقيقة ،
وإذا قرأنا ترجمة حياة ابن الراوندي في كتاب الاتصاف لابن الخطاط
نجد أن ابن الراوندي يسير تحت الأفق الذي سار تحته ابن المقفع ،
ويمشي إلى الغاية التي مشى إليها .

٢ - الحلاج

اختلف علماء العرب وعلماء الاستشراق في هذه الشخصية اختلافا
كبيرا ، وكتب عنه في السنوات الأخيرة المستشرق ما سليون كتابا
ضخما ، سماه شهادة الحلاج ، عاج فيه ناحية التصوف ولم يتعرض للناحية
السياسية ، كأن الحلاج لم يكن له علاقة بالقرامطة ، وكأن الحلاج لم يكن
له شأن في السياسة . وهذا مالا أراه ! ويشاركني المستشرق هارتمن في
الرأى : فإنه لا يبرىء الحلاج في حركته من شائبة السياسة^(١) ولقد عده
المعري من الزنادقة وقال إنه مشعوذ^(٢) وقال عنه ابن النديم : إنه سياسى
يروم قلب الدول^(٣) ويقول ابن خلكان إنه كانت له جمعية سرية في
سوس حيث ألقى القبض عليه هناك^(٤) . ويقول البيروني إنه كان يدعو
للهدى أولا ، وزعم أنه يخرج من الطالقان بالديلم ، فأخذ وأدخل مدينة
السلام مشهرا وحبس فاحتال حتى تخلص من السجن^(٥) .

وجاء في رحلة ابن فضلان التي نشرها الأستاذ أحمد زكي الوليدي .

(١) Hartman' O . L . Z . 205 ' 1925

(٢) رسالة الغفران ص ١٥٠ - ١٥٤ . (٣) الفهرست ص ١٩٠ - ١٩٣ .

(٤) ابن خلكان ص ١٨٤ - البيروني . آثار ص ٢١١ .

(٥) الآثار الباقية ص ٢١١ - ٢١٢ .

لقد كان الخليفة المقتدر يخشاه لأن دعوته انتشرت بين حاشية المقتدر فانخدع به كثير .

وزاد البيروني في كتابه أنه كان رجلاً مشعبذا ، ومتصنعا مازجا نفسه بكل إنسان على حسب اعتقاده ومذهبه ، ثم ادعى حلول روح القدس فيه وتسمى بالإله ، وصارت له إلى أصحابه رقاع معنونة بهذه الألفاظ : من الهو هو الأزلى الأول النور الساطع اللامع ، والأصل الأصلي وحجة الحجج ورب الأرباب ، وملشئ السحاب ، ومشكاة النور ورب الطور ، والمتصور في كل صورة إلى عبده فلان وكان أصحابه يفتتحون كتبهم إليه :

سبحانك يا ذات الذات ، ومنتهى غاية اللذات ، يا عظيم يا كبير ، أشهد أنك الباري القديم المنير ، المتصور في كل زمان وأوان وفي زماننا هذا في صورة الحسين بن منصور . عبدك ومسكينك وفقيرك والمستجير بك والمنيب إليك . الراجي رحمتك يا علام الغيوب (١) .

كل هذه الأمور تجمعت على الخلاج فجئ به . وحوكم أمام جمع من الناس وسئل في أمره الفقهاء فأفتوا بقتله بالإجماع فقتل عام ٣٠٩ هـ ٩٢٢ م وأحرق .

٣ - حيدر بن كاووس الأتاشين

من أخطر الشخصيات السياسية الذين عاجلوا قلب الحكم وتغيير الأوضاع كان قائدا المبعثم يظهر له الولاء ويبطن الشر ، ينمى إلى أصل فارسي ، من أهل أشروسنة شديد الخنق على العرب والإسلام ، كان يقول : إذا ظفرت بالعرب شذخت رعوس عظمائهم بالدبوس (٢) جئ

(١) الآثار الباقية ص ٢١٢ وما بعدها .

(٢) المقرئى ج ٢ ص ١٨٠ .

به إلى المعتصم فحومكم أمام جمع منافل وشهد عليه المازريان قائلاً : إنك كنت تقول لنا إن هذا الدين دين الإسلام إن اتفقنا أنا وأنتم محونا أثره ، ونعود إلى دين آبائنا العجم ، وظهرت عليه أمور كثيرة وكشف أمره فحكم عليه بالموت وقد قال فيه أبو تمام قصيدته المشهورة التي منها :

ما زال سر الكفر بين ضلوعه حتى اصطلى سر الزناد الوارى
ويمكن أن يضاف إلى هذه الشخصيات الثلاثة شخصية أخرى ، من المفيد ذكرها لبيان وحدة الهدف وهي شخصية — يزيد بن أنيسة — أسس هذا فرقة سماها باسمه ونسبها إليه وادعى أن الله سيبعث رسولا من العجم وينزل عليه كتاباً جملة واحدة ينسخ به شريعة محمد صلى الله عليه وسلم .